ابن الأثير

المؤلف: د. فيصل السامر

منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق ـ ١٩٨٣

سلسلة الأعلام والمشهورين (١٨). (١٦٨) صفحة

عرض الأستاذ: فاضل خليل ابراهيم

امتازت الحضارة الإسلامية، عبر تاريخنا الطويل، بعراقتها وشموليتها، وعطائها الثر في مختلف ميادين الفكر، على المستويات الدينية والعلمية والأدبية، والتاريخ أحد هذه الميادين التي ازدهرت وتطورت على يد أعلام من المؤرخين، نقلوا التاريخ من مجرد قصص وأساطير إلى علم يبحث عن الوقائع ومسبباتها والدروس المستوحات منها، كالبلاذري والطبري والمسعودي. ومؤرخنا ابن الأثير هو موضوع الكتاب المعروض بين أيدينا لمؤلفه د. فيصل السامر.

يحتوي الكتاب على مقدمة وتسعة فصول، يتناول الفصل الأول «ابن الأثير نشأته وبيئته الأولى»، وهو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد

الشيباني المعروف بابن الأثير والملقب عز الدين. ولد في جزيرة ابن عمر إحدى مدن ديار ربيعة بالجزيرة الفراتية في اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م). وهو واحد من ثلاثة إخوة، برعوا في الأدب واللغة والحديث، هما مجد الدين وضياء الدين. كان أبوه عاملاً على جزيرة ابن عمر ومتولي ديوان الخراج فيها، على عهد الأسرة الزنكية. انتقلت أسرته إلى الموصل في رجب سنة ٥٧٩هـ، وهو في السنة الرابعة والعشرين، حيث واصل تحصيله العلمي في مساجدها ودور علمها.

أما الفصل الثاني، فيتحدث عن «عصر ابن الأثير»، فقد كان عصراً مثيراً زاخراً بالحوادث العظام، ومليئاً بألوان الصراع بين عديد من القوى في أرجاء الوطن الإسلامي الكبير. إنه القرن الأخير من عهد الخلافة العباسية، حيث واجهت أخطر حركات التحدي والتهديد. لقد عاش مؤرخنا في كنف الأسرة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي سنة **٥٢١**هـ، كما شهد وقائع الغزو الصليبي للمشرق الإسلامي، والغزو المغولي التتري الرهيب الذي اعتبره هو كارثة تجل عن الوصف.

وفي الفصل الثالث، دراسة عن «**الموصل في عصر ابن الأثير**»، تلك المدينة التي عاش فيها مؤرخنا مدة تزيد على نصف قرن، فأحبها حباً جماً واعتبرها وطنه الذي لا بديل عنه. فقد زخرت بعمرانها وجوّها الثقافي الخصب.

أما «**تكوينه العلمي**» فموضوع الفصل الرابع. لقد أمدنا ابن الأثير نفسه ببعض المعلومات عن شيوخه وأساتذته الذين كانوا أفذاذاً في مختلف فروع المعرفة: في الحديث والفقه والقراءات والفرائض والمنطق والحساب والهيئة والنجوم والأدب والتاريخ والأنساب. وأشاد بعلمه كبار المؤرخين والمؤلفين ممن عاصروه، أمثال: ابن خلكان، ياقوت الحموي، ابن الجوزي وغيرهم.

أما الفصل الخامس، فيتناول «**جوانب من حياة ابن الأثير وشخصيته**»، رغم أننا لا

نعرف الكثير عن سيرته الشخصية ، ولا عن طفولته ونشأته ولا عن حياته الخاصة ، إلا أن المؤرخين قد أجمعوا على مزاياه الخلقية ، فقالوا: إنه كان فاضلاً متواضعاً كريم الأخلاق ، ينفر أشد النفور من الانحراف والفساد والغش ، كارهاً للبُخل ، عازفاً عن المناصب ، متفرغاً للعلم.

والفصل السادس يشير إلى «**ابن الأثير مؤرخاً**» ، فيتناول منهجه التاريخي القائم على عدم الأخذ بنظام ترتيب الحوادث على السنين فقط ، وإنما تجميع التفاصيل المتعلقة بحادث واحد في مكان واحد ، مع مراعاة التسلسل الزمني. وهو يرى في التاريخ عظة وعبرة ، وقدوة حسنة يقتدي بها الحكام ، كما يقود الإنسان إلى الزهد وإلى التحلي بالصبر والتأسي حين تحيق به المصائب.

وفي الفصل السابع ، دراسة تحليلية لكتابه المشهور «**الكامل في التاريخ**» في الفقرات التالية : **لماذا سمي بالكامل؟** ، ما هي مصادره؟ ، أهمية الكامل في دراسة التاريخ العربي ، وطبيعة محتوياته ، وشملت الفقرة الأخيرة : النواحي الاقتصادية من حيث توفر المواد الغذائية وارتفاع الأسعار ورخصها ، والحرائق والفياضانات والأوبئة ، والظواهر الطبيعية من تقلبات جوية وخسوف وكسوف وزلازل ، والخطط والعمران ، والحياة الثقافية برجالها من المحدثين والفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرخين والوعاظ والصوفية. كما شملت الإدارة والنظم والمؤسسات والحياة الاجتماعية.

لقد امتلك ابن الأثير في «**الكامل**» ، القدرة على التعليل والنقد التاريخي ، وقد حكّم العقل في الأمور والوقائع التي تجافي العقل وتجانبه.

أما الفصل الثامن ، فيبحث في «**مؤلفات ابن الأثير الأخرى**» ، وفي : «**التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**» ، الذي ألفه سنة ٦٠٨ هـ ، وأهداه إلى الملك القاهر مسعود زنكي حاكم الموصل. و«**أُسد الغابة في معرفة الصحابة**» ، وهو تراجم لصحابة رسول الله ﷺ رجالاً ونساء.

و«**اللباب في تهذيب الأنساب**»، وهو تهذيب وإكمال لكتاب الأنساب للسمعاني.

يختتم المؤلف كتابه بالحديث عن المآخذ والانتقادات الموجهة إلى ابن الأثير، فما يأخذ عليه تطرفه في نزعته الزنكية، فهو يدافع عن الزنكيين دفاعاً لا هوادة فيه وليس فيه تحفظ. غير أن أشد ما أخذه الباحثون عليه هو موقفه السلبي من صلاح الدين الأيوبي عندما أراد توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين.

لقد بذل المؤلف جهداً كبيراً في تقديم سيرة هذا المؤرخ الكبير، الذي أرخ للعرب وللإسلام، خاصة الفصل الخاص بدراسته حول «الكامل»، حيث أعد المؤلف قوائم إحصائية بالمسائل الاقتصادية والظواهر الطبيعية وأسماء العلماء والمشهورين. إلا أنه مما يلاحظ على الكتاب ـ موضوع العرض ـ خلوه من الهوامش التي ترشد القارئ إلى أصول الاقتباسات والنصوص، إلا القليل، وبعض هذا القليل لم يرد فيه رقم الجزء والصفحة وأحياناً الطبعة. كما أن إفراد المؤلف الصفحات الطوال حول بناء بغداد وعمرانها كما جاء في الكامل هو ـ كما أرى ـ ابتعاد عن جوهر ما يدور حوله موضوع الكتاب وهو الدراسة العامة دون التخصص.

* * *

- نحن دعاة سلم ومحبة ولكننا لسنا بأذلاء، وإني لأهيب بالمسلمين أن يهبوا لنصرة دينهم والدفاع عن مقدساتهم.

«فيصل بن عبد العزيز»